

أبو الطيب المتنبى

(١)

سيرورة شعره - قوة المتنبى - عناصر قوته^(١)

لى عامان وبعضُ عام لم أرَ ديوان المتنبى . وكنت قبل ذلك لا أدمن قراءته ولا أكثر من مراجعته ، وإذا تناولته لا أعكف عليه عكوفى على غيره من شعراء العرب من مثل ابن الرومى والمعرى والشريف ، وقد أبدا القصيدة فلا أتم قراءتها . وربما استوقفنى بيتٌ فى أول مقطع منها فأضع الديوان وأذهب آخذ فيما فتحه لى البيت من أبواب التفكير . ولا أزال ماضياً على سننى حتى أنسى الشاعر وما قرأت له . ولا أذكر أنى قرأت له فى حياتى قصيدتين فى يوم واحد . ولكنى على شغفى بغيره ، وقلة اقبالى ومواظبتى عليه ، وطول الفترات التى قد تمضى قبل أن أعود إليه - أقول على الرغم من كل ذلك أرانى أحفظ من شعره أكثر مما أحفظ لسواه ، وإن لم أكن بالقوى الذاكرة ، ولا بالذى يحفظ لشاعر ، كائناً من كان ، شيئاً يأكرمهما بلغ من حبى له وكثرة مطالعتى لكلامه . وقد أنسى له البيت كنت أظننى ذاكره ولكنى لا أنسى معناه . وقد تعابتنى الذاكرة فلا أجد حتى المعنى حاضراً ، ولكنى على هذا أحسه ، وإن كان يعينى تحديده وإيضاحه ، وأشعر كأن أثره شائع فى صدرى ، مستفيض فى جوانب نفسى ، مالى لشعاب قلبى . فأقنع بهذا الاحساس الغامض واستغنى

(١) كتبت هذه المقالات بمناسبة ظهور مؤلف حديث عن المتنبى وقد تناولنا فيها ما أغفله أو أخطأ فيه المؤلف . فموضوعاتنا محدودة بهذا القصد .

به عن المعنى الذى أحدثه ، وأستشعر الرضى والغبطة كأنى حلت مشكلاً
أو جلوت معصى .

ولقد فقدت نسخة ديوانه - أو بعثها - فلم أشعر بالحاج الحاجة إليه .
وكنيت كلما نازعتنى نفسى أن أشتريه أقول ما ضرورة ذلك ؟ أليس خيراً
أن يحيا المتنبي فى نفسى من أن يعيش على رفٍ فى المكتبة ؟ أترى الغاية
من الأدب هى اقتناء الكتب ؟ لا . وليست هى أن يكون المرء كثير الحفظ
أو مدمن القراءة لما لا يتفجع به . وحسب المرء من الكتب أثرها فى نفسه
وفعلها فى تهذيبها ورفع مستواها وصقلها . ولخير له أن يقرأ ، وينسى
لفظاً ما قرأ بل معناه أيضاً ، ما دامت الفائدة قد حصلت . والنفس إذا
كانت خصبة مستعدة تنمى البذرة التى غرست فيها ، وليس يمنع النماء
أن البذرة تحت التراب مدفونة .

ولكن لماذا يبقى عندى من كلام المتنبي ما لا يبقى من كلام سواه ؟
الذاكرة واحدة وليس هو بأحب إلى وأعز على من الشعراء الفحول غيره ؟
أىكون تعليل ذلك أن حفاظ شعره كثيرون وأن أبياته متداولة ملوكة تساق
فى كل معرض من معارض الاستشهاد والاقباس ، وأن كثرة سماعى لشعره
من أفواه الناس ورؤيتى إياه مورداً فى غرضون الكتابات - كل ذلك كان
من آثاره أن علفت أبيات كثيرة له بذاكرتى ؟ هذا التعليل لا يرحز المسألة
عن موضعها قيد أنملة . ويبقى بعد ذلك أن نسأل لماذا نرى الناس أحفظ
لشعره وأكثر رواية وتمثلاً به منهم لشعر غيره ؟ وكل ما هنالك من الفرق
أن دائرة السؤال اتسعت فصارت عامة تشمل الناس جميعاً بعد أن كانت
خاصة قاصرة على كاتب هذه السطور ؟

وعندنا أن علة هذه السيورة التى رزقها شعر المتنبي هى أن فى شعره
« قوة » تخطئها فيمى عداه من مشاهير شعراء العرب . وإذ كنا لا نحب

أن يكون كلامنا مبهماً فالأولى والأمثل أن نخرج من هذا التعميم إلى التخصيص ، وأن نبين مظاهر هذه « القوة » فى المتنبي ، وقد لا نخصيها أو نستطيع الاتيان على أكثرها ، ولكن هذا لا قيمة له ولا خطر ، وليست غايتنا الاستقصاء فإن المقام أضيق من أن يتسع له ، والوقت أقل من أن يعين عليه . وعلى أنه لا حاجة بنا إلى التقصى وحسبنا أن ندل المحتاج من القراء إلى الطريق وليسر هو بعد ذلك على الدرب .

لم يكن المتنبي من المكثرين بل من المقلين ، وهو على أقله لا يُطيل قصائده . وقد حسب له الواحدى ما اشتمل عليه ديوانه فبلغت عدة أبياته خمسة آلاف وأربعمائة وتسعين وهذا كل ما قاله فى أكثر من خمس وثلاثين سنة . وقد قال ابن الرومى مثلاً فى ثلاثين من قصائده الطوال أكثر من هذا . وهذا على الرغم من طول اتصاله بسيف الدولة وكافور خاصة وبغيرهما من مثل ابن العميد وعضد الدولة . وهذه رواية صاحب « الصبح المتنبي » قال إن أبا فراس الشاعر قال يوماً لسيف الدولة وكان قريه « إن هذا المتسمى كثير الادلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد » وهى رواية قرية من الصحة وإن لم تكن فى الصميم من حبة الصواب . لأن المتنبي إنما كان يقول الشعر فى سيف الدولة إذا عرضت مناسبة لذلك كغزوة أو نحوها ولم يكن فارضاً على نفسه أن يقول ثلاث قصائد فى كل عام ، ولكن العبارة صحيحة فى دلالتها على أن المتنبي كان يُقل من الشعر ولا يكثر ، وإنه كان أشبه بصديق لممدوحه منه بشاعر وظيفته الثناء عليه ، وكان المتنبي فضلاً عن ذلك يستنكف أن ينشد وهو قائم ، وقد بدأ حياته بالتطلع إلى ولاية أمر من أمور الدنيا ولم يزل يطمع فى ذلك إلى أن وافاه الحين . وفى هذا وحده ، فضلاً عن حوادث حياته ، دلالة كافية على روحه وإنه من أصحاب

الشخصيات القوية التى خلقت للكفاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح
بالأقدام ، وهذه الشخصية البارزة ظاهرة فى شعره وحسبك شاهداً عليها
أنه لما شعر بتغير سيفر الدولة دخل عليه وأنشده قصيدة يعاتبه بها وفيها
يقول :

وما لى إذا ما اشتقتُ أبصرتُ دونه تنائف لا أشتاقها وسباسبها
وقد كان يُدنى مجلسى من سمائه أحداث فيها بدرها والكواكبها
أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذباً؟
وهو أشبه بالمحاسبة منه بالمعاتبه . وأدل من ذلك قصيدته التى مطلعها :

واحرق قلباه ممن قلبه شيم

وفيها يقول :

يا أعدلّ الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيدها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
(يعنى أبا فراس وحزبه) .

سيعلم الجمعُ من ضمّ مجلسنا بأننى خيرُ من تسعى به قدم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمنت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلقُ جراها ويختصم
وجاهلٍ مده فى جهله ضحكى حتى أتمته يدُ فراسة وفم
إذا رأيت نيبوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يتسم
إلى أن يقول :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شئ بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
شر البلاد بلاد لا صديق بها
وشر ما قنصته راحتى قنص
هذا عتابك إلا أنه مقة
ويكره الله ما تأتون والكرم
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم
أن لا تفارقهم فالراحلون هم
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
شهبُ البزاة سواء فيه والرخم
قد ضمن الدر إلا أنه كلم

وليس هذا بكلام مداح مأجور وما كان ليصدر عنه نونة شعوره بنفسه
وبحقه ، وأنه فوق أن يُعد أحد الأذيال .. وقد أنس إليه سيف الدولة على
أثر هذه القصيدة وعاد فأدناه ، وقال بعض الزواة وقبل رأسه وأجازه .
ومن الإطالة في غير محل لذلك أن نفيض في بيان شعور المتنبي بنفسه ،
ومعرفته لقدره ، وطموحه وبروز شخصيته ، وكفى دليلاً على ذلك قوله
في أمه :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كوثك لى أما
وهو فى شعره يأخذ بيدك إلى ما يريد مباشرة ، ولا يطيل اللف والدوران
معك إلى غايته . وهذا من أسباب القوة . وليس ممن يهذرون ولا يقدرون
قيمة الاقتصاد أو يحشون كلامهم بما يراد به التظاهر والمفاخرة بسعة المجال
وطول الباع . بل هو يدفع إليك المعنى الذى فكر فيه وأنضجه ، تاماً
محبوكاً لا يحتاج إلى زيادة ولا يتأتى نقص حرف مما عبر به عنه ، كقوله :
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس ، روى رحمه غير راحم
فليس بسرحر إذا ظننوا به ولا فى الردى انجارى عليهم بأنم

ثم يتركك وشأنك وما يبدو لك فى هذا الذى ألقاه إليك . إذا شئت
خالفته أو وافقته ، أما هو فيتام كما يقول ملء عينه ولا يبالي كيف وقع
كلامه من نفسك بعد أن ألقاه بلهجة الجزم القاطعة التى لا تردد فيها .

ولو كان غيره مكانه لمهد لهذا المعنى وراح يسوق الحجج والأمثلة والشواهد على صحته وسداده حتى يملك ، ولأغرق هذه الخلاصة في بحر من الكلام حتى تعود وليس لها أثر محسوس . وأين من يدعى مثلاً أن المتنبي هو الوحيد الذى له معان مستجادة وآيات متخيرة وأمثال حكيمة ؟ أليست دواوين الشعراء حافلة بنظائر ما فى شعر المتنبي ؟ ولكنها ليست سائرة على الألسن لأن أصحابها لم يُرزقوا رجولة المتنبي التى تخرج البيت مخرج المثل ، ولم يمنحوا مثله إحكام التسديد إلى الغاية ، والاقتصاد إلى الحد الواجب ، وحسن تخير الألفاظ التى يؤدى بها المعنى ، والحلاوة فى سبكها وتعليق بعضها ببعض . وهى صفات قلما يخلو منها شاعرٌ كبير ولكنها لا تؤدى إلى مثل ما تحسه من القوة فى شعر المتنبي إلا إذا اجتمعت ، ولو إنه كان كابن الرومى مولعاً بشرح المعنى وتصفيته والتوليد منه ، أو كالشريف كلفاً بفخامة اللفظ ورنه الأسلوب وجزالة التعبير ، أو كمهيار فى حشوه وفور روحه ، أو كالمرعى فى التردد وكثرة الموازنة والتحليل - نقول لو إنه كان كهؤلاء لما أجدت عليه مزاياه الأخرى . نعم كان يكون له محلٌ رفيع بينهم ولكن شعره لم يكن ليسير هذا المسير ، ولا كانت الأمثال والحكم تكثر فيه هذه الكثرة . وقد لا توافقه على ما يذهب إليه من رأى ولكنه لا يسعك إلا أن تحترم منه ما تحسه فى شعره من عمق الاقتناع ، ومن قوة الجزم البات ، وإلا أن تتأثر بطريقته المباشرة فى العبارة عن فكرته ، وأن تشعر بقيمة اقتصاده وما ينم عليه ذلك من يقينه إن الأمر لا يحتاج إلى أطناب وإمهاب ، وإنه بديهى يلمس السداد فيه ويحس وإلا أن تفتنك موسيقى الأسلوب وحلاوته وإن كانت أشبه بموسيقى الحرب !

ولكن المتنبي كثيراً ما يُزهى بقوته هذه فيسئ استعمالها ويأتى بالثقل والذى تستك منه المسامع ، وبالضعيف المهلهل . ولهذا كثرت المسافس وحفل بها شعره وإن كان كثير من ذلك مما قاله فى صباه أو مما تعمدته ولا عجب ! فإن عشرة الوثاب شديدة .

شخصيته وجوانبها - موقفه من كافور

يقول ابن رشيقي في كتاب العمدة : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » ووفق بهذه العبارة الوجيزة إلى ما عجز عنه سواه من النقاد والشراح والخصوم والأنصار . والواقع أننا لا نعرف شاعراً آخر كان له من الشأن ما كان للمتنبي ، أو أحدث في عالم الأدب مثل ضجته ، وأثار من العداوات المرة بعض ما أثار ، حتى ولا ابن الرومي الذي بسط لسانه في كل عرض حتى خافه القاسم وأشفق أن يستطيل عليه بمثل ما وصم به غيره فدعاه إلى الطعام ودس له السم فيه . وحسبك دليلاً على عمق ما تركه المتنبي من الأثر في بعض النفوس قولُ الجرجاني عن فريق خصومه إنه (أى هذا الفريق) « يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحترى ويسوغ لك تقييد ابن المعتز وابن الرومي حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ونفر نفاًر المضمين فغض طرفه وثنى عطفه وصعّر خده وأخذته العزة بالاثم » .

ولا يُعقل أن تكون علّة ذلك أن شعر المتنبي يهيج هذا النفار ويغري بذلك الامتعاض ويشعر القارئ كأنه بطبيعته وتر أو ضميم . فإننا نقرؤه في عصرنا هذا فنوافقه أو نخالفه ونستجيد قوله أو نستردله ونعجب به أو لا نعجب ، ولكننا لا نحس شيئاً من هذا الذي يصفه الجرجاني في كتاب الوساطة . ولا شك أن الناس كانوا مثلنا على عهده ولكنهم كانوا فريقين : فريقاً يراه ويعرفه ويلو منه بعض صفاته ، وفريقاً لا يتأذى إليه سوى شعره ولا يحكم عليه إلا به وبأخباره مثلنا . وقد روى عن أحد النحاة ، واسمه أبو علي الفارسي ، إن بيته كان في طريق المتنبي إلى عضد الدولة .

وكان أبو على هذا يستقله ولا يرتاح إلى ما يأخذ به نفسه من الكبرياء ،
وكان ابن جنى كثير الإعجاب بالمتنبى يكره من يذمه ويحط منه ويسوءه
إطراب أبي على في ذمه ، واتفق أن أبا على هذا قال يوماً « اذكروا لنا بيتاً
من الشعر نبحت فيه فبدأ ابن جنى فأنشد :

حلتِ دون المزار فالיום لو زر تـ لحال النحولُ دون العناق
فاستحسنه أبو على واستعاده ، وقال لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى ؟
فقال ابن جنى للذى يقول :

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لى وأثنى وياضُ الصبح يُغرى بى
فقال والله هذا أحسن فلمن هذا ، فقال للذى يقول :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعل

مضر كوضع السيف فى موضع الندى
فقال وهذا أحسن والله ! لقد أطلت يا أبا الفتح فأخبرنا من القائل ؟ قال
هو الذى لا يزال الشيخ يستقله ويستقيح فعله وزيه وما علينا من القشور
إذا استقام اللب ؟ قال أظنك تعنى المتنبى ؟ قال نعم ، قال والله لقد حبيته
إلى إلخ إلخ .

نقول ونحن لا نطمئن كثيراً إلى أمثال هذه الروايات ولا نمنحها ثقتنا
الثامة ، ونشتم من أكثرها رائحة التأليف والاختراع ، ولكن هذه الرواية
فى ذاتها معقولة وإن كان يلاحظ أن ابن جنى لم يتخير أجوداً ما للمتنبى
وما يصح أن يهر من شعره ، ولكنا نحسب ابن جنى تعمد أن لا ينشد
من كلام أئمة الطيب ما عليه طابعه الخاص ، مخافة أن يظن أبو على
فيزهده فى الاستزادة ويفوت على ابن جنى غرضه ويقطع عليه متوجهه ،
فأثر صاحبنا أن ينشده من الأبيات ما قدر أن يكون أوقع فى نفس لغوى

نحوى مثل أئى على الفارسى . على أننا إنما سقنا هذه القصة شاهداً على أن « شخصية » المتنبي هى التى أقامت قيامة الناس فى زمنه وجعلتهم لا يعدون فريقين : أنصاراً متعصبين وخصوماً متعنتين . وذلك ما تفعله كل شخصية قوية ، كالعاصفة لا يقى أحد إلا غنى بها وأكثر لها . وما حاجتنا إلى القصص والأخبار نسوقها ونستشهد بها على ضخامة شخصية المتنبي ؟ إن شعره أصدقُ راوٍ وأوثق شاهد . وإذا كنا فى حاجة إلى شاهد من غيره فكفى ما قاله رجل ساذج بفطرتة فى رثاء المتنبي لما بلغه قتله ، وهو رجل يدعونه أبا القاسم المظفر بن على الطبسى لا نحسب أديباً قرأ له أكثر من هذه الأبيات :

لا رعى الله سربَ هذا الزمان	إذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانى المتنبي	أى ثانٍ يُرى لبكر الزمان ؟
كان من نفسه الكبيرة فى جيش	وفى كبرياء ذى سلطان
هو فى شعره نبى ولكن	ظهرت معجزاته فى المعانى

والبيت الثالث هو الشاهد . وقد فطن فيه صاحبنا أبو القاسم إلى الحقيقة ، وانظر بعد ذلك إلى قول المتنبي نفسه من قصيدة له يهنئ فيها كافوراً ببناء دار :

فأرم بي ما أردت منى فانى	أسد القلب ، آدمى السرواء
وفؤادى من الملوك ، وإن كا	ن لسانى يُرى من الشعراء

وإنه كذلك ، وما به من عيب إلا ما تكشف عنه الشهرة . والشهرة إذا استفاضت ، صار صاحبها هدفاً لعيون الخلق وألسنتهم ، تلك تفلى وتنقب ، وهذه تروى وتسرد ، حتى تعود كل كلمة لصاحب الشهرة محفوظة ، وكل حركة ملحوظة ، وكل عمل محسوباً ، وكل رأى مكتوباً ، وحتى تشغل التوافه من أعماله ، والفئات من حركاته أو أقواله ، أكثر من

محلها الصحيح . فيشتهر بالبخل وقد لا يكون كراً بخيلاً ، ويوصم بالجين ولعله أجراً ذى قلب ، وهذا هو الذى مُنى به المتنبي .

ولقد ذكرنا فى مقالنا السالف أنه لم يكن يعد نفسه شاعراً يُتنبى على سيف الدولة ويدوّن وقائمه وحسناته ويمشى فى ظله ، بل صديقاً وكفئاً ، وأوردنا من شعره بعض ما ينم على ذلك ، ولم يكن حيال كافور إلا كذلك . تأمل قوله وهو يهنئه :

وأنا منك ، لا يُهنئ عضوٌ بالمرات سائر الأعضاء

ولو سوى المتنبي لشعر بالضعف أمام القوة المادية التى يملكها الملوك الذين غضب عليهم وجفاهم وهجاهم . ولكنه كان يشعر بقوة لدنية تكافئ فى نظره قوة الجيوش وأساسها ، بل كان يحس أن فى وسعه أن يعتو ويسطو كذلك على العاتين والساطين ، فمن ذلك قوله لما خرج من مصر :

لتعلم مصرُ ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيتُ وأنى أبيتُ وأنى عتوت على من عتَا

ولو شاور الحزَمَ الديوى لما أصدر هذا الاعلان ، ولا أشهر هذا الانذار ، ولخطر له أن يتقرب إلى من نابذهم قبل مضيه إلى مصر كسيف الدولة على الأقل . ولكن المتنبي ليس من هذا الطراز لأنه لا يعرف ضعف النفس ولو خلت يده من كل وسائل البطش وكثر عُداته وقل إخوانه . فنفسه أبداً شابة قوية على الأيام كما يقول :

وفى الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبة ولو أن ما فى الوجه منه حراب
يغير منى الدهرُ ما شاء غيرها وأبلغ أنقصى العمر وهى كعاب

لا يكر به أن يفارق وطنه إذا نبا به مقامه فيه ، ولا تحز فى عظامه النفاقة ولا يلين عزمه بعدُ الشقة وكثرة الأعداء وقلة الأسباب إذا وجد

ما يركب فيها ، وإلا فالسير فى المهامه والقفار على الأقدام أشرف وأفخر
وأمثل به :

غنى عن الأوطان لا يستغنى
عن ذملان العيس إن ساحت به
إلى بلد سافرت عنه ، إياب
وإلا فقى اكوارهن عقاب

وماذا يهمه ؟ إن مطلبه ضخم ومراده عظيم ، وعلى قدر علو المطلب
تكون صعوبة المرتقى ، وهو لعظم ما يحس من ذات نفسه يدرك أنه وحيد
فى هذه الدنيا ، فوطنه وغيره سواء :

أهم بشيء واللىالى كأنها
تطاردنسى عن كونه وأطاردار
وحيد من الخلان فى كل بلده
إذا عظم المطلوب قل المساعد

وهو لعظم رجولته يستنكف من صفات النساء ويتبرأ مما يُجملهن حتى
من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ ويقول « وما بى حسن المشى »
أى إنه ليس جميل المشية ، والواقع أنه كان مشاءً قويًا صبورًا على المشى
سريعًا فيه ، حتى زعموا أنه كان يوهم أغرار البدو أن الأرض تطوى له ،
وبلغ من ذلك أنه لما رثى خولة أخت سيف الدولة نعتها بصفات الرجال
وأخرجها من جنسها ، ولم يرض إلا أن يجعلها « غير أنثى العقل » ! وإن
كانت قد خلقت أنثى ، وإلا أن يفضلها على عشيرتها التى نعتها وذلك
حيث يقول :

فإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت
كريمة غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها
فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

ومثل ذلك رثاؤه لعمة عضد الدولة حين أشار إليها بضمير المذكر وقال
إن حسن ذكرها ينم على تذكرها :

يحسبه دانسه وحده
ويظهر التذكير فى ذكره
ومجده فى القبر من صحبه
ويستر التأنيث فى حجه

قد يقال : إذن فما بال هذا الرجل القوى العاتى لا يرى أن يقصد إلا كافوراً بعد أن فارق سيف الدولة على حين كان كثير من الأمراء يتوقون ويشتهون أن يقدم عليهم ، فأحقدتهم باطراحه إياهم وصمده إلى كافور ؟ والجواب إنه لم يمدح كافوراً لأنه رآه أهلاً لمدحه ، بل طمعاً فى ولاية بعض أملاكه ، كما هو مشهور معروف . أما المدح فإننا والله نراه تهكم به ولم يثن عليه . وما قرأنا له قصيدة فى كافور إلا عثرنا فيها على بيت أو أبيات تُشعر بأن المتنبي كان يركبه بالدعابة ويرى نفسه أجل وأخطر شأنًا من أن يمدحه ، ونورد لذلك بعض الشواهد . قال :

أنت أعلى محلّة أن تهنى بمكان فى الأرض أو فى السماء
ولك الناس والبلاد وما يسر ح بين الغبراء والخضراء

فمن يرى فى قوله هذا مدحاً ؟ أى امرئ يقال له هذا ولا يدرك أنها مبالغة قد تجاوزت كل حد مع أعظم التسامح حتى انقلبت هجاء ؟ ومن الذى يرضيه أن يقال له إن لك ما بين السماء والأرض ؟ أليس هذا فراراً من التهينة ؟ قد يقال : ولكن المتنبي كثير المبالغات وتلك عادته . حسن ! فتأملوا إذن قوله واذكروا أن كافوراً أسود الجلد :

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس

بشمس منيرة سوداء

شمس سوداء تفضح شمس النهار ؟ ؟ ولقد اضطر المتنبي لما نظم هذا البيت أن يفسر المعنى ويؤوله على خلاف عادته من إلقاء الكلام وترك الناس وشأنهم ، فيه وجارى ابن الرومى فى هذه المرة فقال :

إن فى ثوبك الذى المجد فيه لضياء يبرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس ، وبيضاض النفس خير من ابيضاض القباء

ولم يكتف بذلك بل راح يقول له فى نفس القصيدة إنه أمل العيون !
وماذا ترى العين فى كافور الأسود ، الضخم البطن ، القبيح السحنة ،
الغليظ « المشفرين » ؟

(يا رجاء العيون) فى كل أرض لم يكن غير أن (أراك) رجائى
أيمكن أن يستقيم المعنى ويُعقل إلا على تأويل واحد هو أنه اشتاق أن
يصير عبدَ السوء هذا الذى صارت له فى مصر دولة كما يحب المرء أن يرى
قردًا يقلد الآدميين مثلاً ؟

وأدل على شعور المتنبي وهو يمدح كافورًا قوله من قصيدة أخرى .

أما تغلط الأيام فى بأن أرى بغيضًا تنائى أو حبيبًا تقرب ؟
ومن أقرب إليه يومئذ من كافور وأبعد من سيف الدولة ؟ وما الداعى
إلى ذلك ، والمناسبة لا تستوحىه ؟ ولم يكتف بيت واحد بل أنشأ يقول
بعد أن وصف سيره وقدمه إلى مصر :

عشية أحفى الناس بى من جفوته وأهدى الطريقين الذى أتجنب
وهل من المدح أن يقول لك قادمٌ عليك أن أرشد الطريقين هو الذى
تجنبته وأضلهمما الذى سلكته ؟ وقد زاد المتنبي الطين بلة فقال :

وما طربى لما رأيته بدعة ا لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطرب
فجعله هزأةً وأضحوكة وقرر أن لا غرابة إذا طربت لما رأيته . وقد
فطن ابنُ جنى إلى أن المتنبي أراد الاستهزاء فقال « لما قرأتُ عليه (على
المتنبي) هذا البيت قلت جعلت الرجل أبا زنة (وهى كنية القرد)
فضحك » . وشر من ذلك وأدهى قوله بعد هذا البيت :

وتعذلنى فيك القوافى وهمنى ، كأنى بمدحٍ قبل مدحك ملذب

والشطر الأول صريحٌ في السب والهجاء وإن كان قد رقعهُ في الشطر الثاني .

وحسبنا أن أبا الطيب لما انتصرف عن مصر شعر أن عليه أن يعتذر للأدب مما تكلفه من مدح كافور ، فقال ما معناه أن الناس هم الذين أحوجوه إلى مدحه ، وأن هذا المدح كان عبارة عن هجاء للخلق لأنهم اضطروه أن يقصده وهذا قوله :

وشعرٌ مدحتُ به الكركدن بين الفريض وبين الرقي
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجواً الوري

ولم يكن يخفى عن كافور أنه ما قصده حباً فيه بل ليستعين به على كبت خصومه ، فقد كان يقول له في وجهه أن قوماً خالفوه في مجيئه إلى كافور ولم يسايروه إليه استكفاً فذهبوا شرقاً وحضر هو :

وما شئتُ إلا أن أذل عواذلي على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني فشرقوا وغربت ، أنى قد ظفرت وخلوا

وما هذا من المدح في شيء على الرغم من احتراسه في الشطر الثاني من البيت الأول .

(٣)

اعتراض مدفوع - المتنبى ومظاهر الرقة - طماحه -

بعض مشابه من نابليون

تلقيت اليوم رسالة من الأستاذ الشيخ عبد العظيم يوسف ينكر فيها على بعض ما ذهبت إليه في كلامي على شخصية المتنبى ويؤخذني على قولي « وهو لعظم رجولته يستكف من صفات النساء ويترأ مما يجملهن حتى من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ » ويقول « وما نبى حسن

المشى « أى أنه ليس جميل المشية والواقع أنه كان مشاءً قويًا صبورًا على المشى سريعًا فيه إلخ » .

وأنا اجتزئ من رسالة الأستاذ بما يمس الموضوع دونى ، قال تعليقًا على هذه الكلمة : « وهذا رأى إذ لا تغتبط الخثالة من الافناء إذا امتدحت به ولا تترتاح السفلة من الدهماء إذا ألسته ، بله ذا البطولة كالمثنى ، فصرف هذه الصفات إلى مزنون بالتخثث أحق وأجدر ، فارجع فيها بصرك كرة أخرى . ولقد ظهر منك بعض التردد والانكار لهذا الوصف إذ تقول « من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ » ومنشأ ما فرط وهلك إليه فيما أحسب ، هو اقتطاعك لجزء فى بيته عما يلتحم به قبله وبعده ، وتأويلك له على حسب ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من لفظه ، فجاء معناه كما ترى . وقبل مساق البيت مشدودًا بأواخى أخويه ، أقول إن قول العرب ما بى كذا مثلاً معناه ما اكثرت به وما اهتم له وما أباليه . أما الجزء المذكور فمن قصيدته التى أثبتها عند وصوله الكوفة من مصر يهجو كوفيفرها ونواطيرها الغافلين عن أعمال الثعالب ويصف منازل سيره التى اجتاب ومصاعب سبله التى اجتاز يقول :

ألا كلُّ ماشيةٍ الخيزلُ فدى كل ماشيةٍ الهيدبى
وكل نجاةٍ بجاويةٍ خنوف - وما بى حسن المشى
ولكنهن حبالُ الحياة وكيد العداة وميط الأذى

واضح جليًا أنه يفدئ الخيل والنياق وضروب سيرها بكل امرأة جميلة حسنة المشية ، ويقول وما بى حسن مشى النسوة أى لا آبه ولا أحفل بمحاسن مشيهن . وتتمثل العبارة وجهًا آخر أن تكون الألف واللام فى المشى عوضًا عن ضمير مضاف إليه يرجع ، لا إلى المرأة ، لكن إلى الخيل والإبل ، أى أنه لم يؤثرها على النساء لحسن مشيتها على مشيهن ، كلا فإنه

لا يهتم ولا يحفل ما يشتغل به الضعفة من التلهى بالمحاسن البادية ولكنه اعتصم بها فوصل ساحل الحياة وشارف بر السلامة فأعاناه على كيد عداه وكتبهم ودفع أذاهم عنه . ذلك هو المعنى الفحلى تترك أساريه بأشعة الصواب وهو مراد أبى الطيب فى مقام المفاضلة بين الماشيتين .

نقول والذى يقرأ هذا يحسبنا وصمنا المتنبى بسبة ، وطوفناه بعار ! أو يتوهمنا على الأقل لم نفهم معنى البيت . وما فعلنا شيئاً من هذا وإنما أردنا أن نتخذ من قوله دليلاً على نزعته . ولا بأس من العود إلى هذه النقطة لنجلوها وندفع الأشكال فنقول إن الخيزلى هذه مشية يصفونها بأن فيها استرخاء وتفككاً من مشية النساء ، والهيدى مشية سريعة للإبل والخيول ، والنجاة الناقة السريعة التى تُنجى راكبها والبجاوية نسبة إلى بجاوة وإليها تُنسب النوق . ومعنى الأبيات الثلاثة : فدت كل امرأة تمشى الخيزلى كل ناقة تمشى الهيدى ، أى أنه ليس من أهل الغزل وليس به حب النساء وإنما هو رجل أسفار يحب كل ناقة سريعة السير توصل إلى الحياة وتكيد الأعداء وتدفع الأذى .

هذا هو المعنى الصريح الذى لا يحتاج إلى تأويل ولا يستلزم أن نخل الألف واللام محل ضمير محذوف مضاف إليه ، والذى لم نتردد كما يزعمنا الأستاذ فى استخلاص مدلوله وإضافته إلى أشاله مما سقناه . وقد قلنا أنه رجل قوى عظيم الإحساس بالرجولة ومقتضياتها ، وإن إحساسه هذا ظاهر من استكافه الطراوة والرخاوة ، ونفوره من نسبة شيء من ذلك إليه فى نفسه أو فيما هو جاعله أداة إلى غايته . وليقل الأستاذ ما شاء ، فإنه يبقى أن فى الأبيات تعريضاً بمشية النساء المسترخية ، وذكرًا لزهادته فيها وعزوفه عنها ، وهذا شأن أبى الطيب فى كل حالاته ، وهو لا يكره التطرى فى المشية وحدها ، بل يتجاوز ذلك إلى كراهة الترف والنعومة فى جميع

مظاهرها ، وإذا كان قد بقى بعد الذى سقناه فى كلمتنا السابقة مستراداً
فإليك قوله من قصيدة يمدح بها كافوراً .

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربه فيخار أن يكسى دروعاً تهده

والشفوف هى الثياب الرقيقة ، وتربه أى تنعمه والمعنى ظاهر ، يقول
قلبي لا يطلب رفاهيةً لجسمه بأن يكسوه ثياباً رقيقة ناعمة ، وإنما يطلب
ليس الدروع الثقيلة ، حتى الثياب الناعمة لا يرتاح إليها وإن كان مضطراً
أن يلبسها ، إذ كان لا يسع أحداً أن يظل فى الدروع وحلق الحديد ،
وتراه حتى إذا اضطر إلى المفاضلة بين امرأة وامرأة ، أثر الساذجة الجمال
التي لا تكسب نفسها الحسن بالاحتيال والتي لا يكون حسننها إلا طبعاً
لا مجلوباً ومن قوله فى ذلك .

ما أوجه المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفى البداوة حسنٌ غير مجلوب
أفدى طباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صيغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهسن صقيلات العواقيب

لقد كان للمتنبى شغلانٌ بمساعيه عن الحياة الرخوة ، وعما يروق
الضعفاء وأوساط الناس من العيش الناعم اللين . ولقد افتتح حياته بما ختمها
به : بطلب ذلك « الشئ » الذى ليس له غاية تعرف ، أو حد يوصف
والذى يتر العمر كما قال فى صباه .

إذا لم تجد ما يتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشئ الذى يتر العمر
وهو لا يعرف على وجه الدقة ماذا يريد من الأيام . نعم لقد طلب
الحكم ، وبغى أن يؤمر على الناس ، ولكنى أحسب أن لو كان نال ذلك

لما قنع به ولا قعد عن الطلب . ذلك أن نفسه تجيش برغبة جامحة عنيفة
فيما نحسه من آياته الآتية ، وإن كان لم يسهه ، ولا يسعك تحديده .

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق «الملوك» وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا «دويًا» كأنما تداول سمع المسرء أتمله العشر

هذا هو الذى يبتغيه . يريد أن يدوخ الدنيا وأن يترك فيها دويًا لا ينقطع
أبد الدهر ، ولو شاعر غير المتنبي قال هذه الأبيات لجاء البيت الثانى على
الأرجح هكذا .

وتضريبُ أعناق «الرجال» وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
ولكن نفس المتنبي فوق هذا ، أعناق الرجال العادين يتركها لعسكره .
أما هو فلا يضرب إلا أعناق «الملوك» . ولو شاعر غير المتنبي قال هذا
وراح فى كل شعره يطلب هذا المجد ، ويذكر الفتكاتِ البكر ، لابتسم
القارئ ابتسامة السرور من هذه المبالغات الظريفة الجوفاء ! ولكنك تقرأها
للمتنبي الفقير ، الصغير النشأة ، الذى زعموه ابن سقاء ، وقال بعضهم
فى هجائه أن أباه :

عاش حينًا يبيع بالكوفة الماء وحينًا يبيع ماء الحيا

نقول تقرأ له هذا - وتلك نشأته - فلا تضحك ولا يخامرك شك فى
صدقه وفى إخلاص سريره حين يتحدث إليك بهمة نفسه ومطمح قلبه ،
ونحس أنه لو كان الحظ آتاه وحياه الملك لحاول أن يكون كالاسكندر
المقدونى .

ولقد فخر غيره من الشعراء وباهوا بأصولهم ، وحدثوا عن أظماعهم

وطلبهم للمعالى ، ولكنك لا تجد غيره يسمى ما يطلبه « حقاً » له ! انظر قوله فى مستهل قصيدة يمدح بها محمد بن سيار بن مكرم :

سأطلب «حقى» بالقنا ومشايخ	كأنهم من طول ما التشموا مرد ،
ثقال إذا لاقوا - خفافى إذا دعوا -	كثير إذا شدوا - قليل إذا عدوا ،
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده	وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت حفت بى على كل سائح	رجال كأن الموت فى فمهم شهد
أذم إلى هذا الزمان « أهيله »	فأعلمهم قدم ، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم	وأشهدهم فهد ، وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدواً له ما من صداقة بد
بقلى - وإن لم أرو منها - ملالة ،	وبى عن غوانها - وإن وصلت - صد

وبهذا الكلام الشامل يجبه بمدوحه ، ومن الغريب ، بل مما له دلالة خاصة ، أن أحفل قصائده بمثل هذا التحديث عن نفسه والإشادة بها أماديجه ، وإن أخلاها من ذلك أهاجيه . حتى لكأنه يتعمد أن يثنى على نفسه ويذكر فضلها قبل أن يتطرق إلى الثناء على مدوحه !

ولم يكن من يقصدهم من الأمراء والملوك يستخفون بشأنه ، أو يقللون من خطره ، أو لا يعتدون برأيه . فقد كان اهتمامهم لمعرفة حقيقة رأيه فيهم عظيمًا . يدللك على ذلك ما حكاه عبد العزيز بن يوسف الجرجاني ، وكان كاتب الانشاء عند عضد الدولة ، عظيم المنزلة منه قال « لما دخل أبو الطيب المتنبى مجلس عضد الدولة ، وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه وقال له « سله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا » قال فامتثل أمره ، وجاريت المتنبى فى هذا الميدان ، وأطلت معه هذا القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال « ما خدمت عيناي قلبى كالיום » فاختصر اللفظ وأطال المعنى ، وكان ذلك أوكد الأسباب التى حظى بها عند عضد الدولة »



ولكن هذه النفس الكبيرة التى كان منها فى جيش ، كما يقول صاحبنا أبو القاسم المظفر بن الطبرى ، لم تخل من مواضع الضعف وإن كان لها من ظروف حياته ما يبررها أو يجعلها معقولة على الأقل ، وأى نفس تخلو ؟ ألم يكن نابليون زمن المروءة والفتوة ؟ ألم يكن من أقل الناس كرمًا وأريحية ووفاء ، ومن أخونهم عهدًا ، وأغدرهم ضميرًا وأفجرهم يمينًا ، لا يأنف أن يتدلّى إلى سرقة الحق ، أو يتسفل إلى الكذب ، أو يحقد على رجل من أعوانه فيقتله أو يسمه ؟ يظلم قواده وينشر فى صحيفته الرسمية ما يجب أن يُعرف عنه ما لا فيه للحق إنصاف . حتى بعد هويّة وبعد أن ذهب إلى منفاه كان يزور الحديث ويختلق الأباطيل ويقلب الحقائق ؟ ولكنه على الرغم من كل ذلك عظيم بمزاياه وإن كثرت عيوبه . وكذلك المتنبي ، وإن لم تكن العيوب واحدة . وليس نابليون بالعظيم الوحيد فى الدنيا ، ولم نسقه مثلاً لأن المعايير مشتركة ، بل « لبعض » مشابه نراها بين الرجلين . فكلاهما وضع النشأة ، على الأقل بالقياس إلى الذروة التى تسنماها والرفعة التى بلغاها كل فى ميدانه . وكان كل منهما يحفزهُ طلبُ المجد ، ولا يدع له قرارًا دون أن يعرف لغايته حدًا . وكما أن المتنبي يرى أن المجد أن تترك فى الدنيا الدوى الذى يصفه ، كذلك كان نابليون يقول « ليست الشهرة إلا ضجة عظيمة كلما اشتدت كان ذلك أذيعَ لذكرك وأطير لشهرتك ، ولتسلم أن القوانين والأنظمة والأمم كلها إلى فناء ، ولكن ضجيج الشهرة دائم خالد لا يزال يدور فى آذان الأجيال الآتية » وكلاهما كان يعلم أن لا وفاء ولا صداقة فى هذه الدنيا ، ولا يرى ذلك ضائره . وكان نابليون يقول « ما للرجال والرحمة والرفقة ؟ ذلك بالنساء أخرى . وأخلق بالرجال أن يكونوا كالسيوف مضاء وكالطود ثباتًا ، ومن لم يأنس من نفسه ذلك فليتنح عن ميادين الحرب والحكم » ويذكرنا قول المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس ، روى ربحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم
ولكن بينهما على ذلك من الاختلاف ما بين اثنين عاش أحدهما بالفضيلة ،
ونجح الآخر فى حياته ثم هوى بغيرها .

(٤)

سخافة وحكمة - مقتضيات الخلود - العفو أو التعمد فى حكمة المتنبي

أحكى للقارئ قصة شخصية تبقى سخافتها بى عاقلة وإن كنت قد
تفاديتها ، وتدل على مكان المتنبي من الفضل وحكمة الطبع ولولا ذلك
ما سقتها : صنعت يوماً قصيدة ، هى قصة مروية على لسان بطلها ،
وجعلتُ الجحيم مسرحها ، وتصورت فيها بعض ما يقع فى دنيانا هذه
وما تجيش به نفوسنا من شتى العواطف والغرائز الأرضية ، ونورد هنا
بعض آياتها فى موقف ليفهم القارئ المراد :

ذهبتُ أجوس خلال الجحيم	وأنفض أجوازها والحجر
فما راعنى غير مرأى اللعين	إبليس يرمقنى كالنمر
وأنصفه : إنه كيس	ظريفٌ ، وإن كان ينبوع شر
ولولاه آضت حياة الورى	كجنات ربك ذات السدر
جمالٌ وليس له مدرك ،	وخير ولكن من المفتقر ؟
وإبليس ، فاعلم ، أبو مرة ،	له جرأة الليل إمّا اعتكر
غنى بقوته والجلال	لا يسأل الخلق أن ينتصر
سواءً عليه أنصفته	أم ارتدت ساحته بالعرر
وما كان يعدم من حزيه	رسولاً ، وإن أعوزته النذر
فنازعنى الشوق أن أنتحيه	وخامرنى الخوف مما يسر

وأدرك أنى له وامبق
 فحيا وانقض لى رأسه
 وقال ، وفى صوته نبرة
 « رصيفى الجليل! - إذا لم أكن
 فإنك توشك أن تشنى
 ألا انظر فتاتك نحو الهوى
 يموج على عطفها شعرها
 تبارك خالق هذا الجمال
 وطوبى لمن قد غدا لصقها
 تعاطيه أنفاسها حرة
 وتدفع فى صدرها وجهه
 وتجعل من معصيه لها
 وتأنى ، وكلتا يديها له ،
 وتنجذه وهو فى غمرة ،
 وتجلو مفاتنها لا تظن
 ويأبى الغرير سوى أن يفر !
 وأنى مستعصم بالخذر
 كما يفعل الأفعوان الذكر
 من السخر شائكة كالأبر
 ركبت من الوهم شر الحمر !
 إلى الله مستغفرا ، لو غفر !
 وتحت مختارها المنهر !
 إذا أسقط الوجد عنها الأزر
 ومثبته بالشباب النضر !
 وإن عجز من عنفها أو جأر
 وتلمسه جسمها والشعر
 وتحنو على شعره بالثر
 نطاقا ، وتدعوه أن يهتصر
 وتناد من بعد إذ تناظر
 وتورده ، وبشاء الصدر !
 عليه بشيء ولا تدخر
 فوها له من سعيد بطر !

وكنت ضيناً بها ، مزهواً بفكرتها ، أحملها معى إلى حيثما ذهبت .
 ثم ضاعت منى مسودتها - ولا أدرى كيف حدث ذلك - كما ضاع
 غيرها . فأسفت ، ولبت زماً أشكو افتقادها إلى إخوانى ، وزاد فى ألمى
 أنى لا أذكر منها إلا كلمات أو أبعاض شطور لا خير فيها ، ولعلها أردأ
 ما فى القصيدة . واتقضت شهور وشهور ، وهى بين العين والقلب ،
 والذاكرة كإخوان ماعهدتها . ثم أصبحت يوماً على ذكر ماكس نورداو ،
 فتناولت كتاباً له فإذا فيه المسودة الضائعة ! وفى هذا اليوم نعى إلينا ماكس
 نورداو فأحسست بدافع إلى الموازنة بين مقدارى الخسارة والريح ، وإلى

المقابلة بين العواطف المتعارضة التى حركتها فى النفس وفاةُ هذا العالم الكبير
واهتدائى إلى قصيدتى الثائرة ! ولم يزل يجب بى التفكير ويوضع بهذه
المناسبة حتى ذكرت قولَ أبى الطيب من قصيدة يرثى بها مولى تركياً
لسيف الدولة اسمه يماك :

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنَعْنَا بِهَا مِنْ جِئَةٍ وَذُهُوبِ
تَمَلَّكَهَا الْآتَى تَمَلَّكَ سَالِبٌ وَفَارَقَهَا الْمَاضَى فَرَاقَ سَلِيبِ
وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبَرَ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ
فَعَدْتُ إِلَى قَصِيدَتِي وَتَنَاولْتُ مَسْوَدَتَهَا وَمَزَقْتُهَا بِيَدِي غَيْرَ آسَفٍ عَلَى
تَمْزِيقِهَا !

وَأَنْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ أَفْهَمْتَ ؟ لَا أَدْرَى ! وَلَكِنَّ الَّذِي أَدْرِيهِ أَنِّي قُلْتُ
لِنَفْسِي إِنْ الْمَتْنِبِيُّ أَصَابَ كَيْدَ الْحَقِيقَةِ حِينَ قَالَ إِنْ الْمَوْتُ هُوَ عِلَّةُ الشَّجَاعَةِ
وَالْكَرَمِ وَالصَّبْرِ ، وَلَوْ اتَّسَعَ مَصْرَاعَا الْبَيْتِ لَقَالَ إِنَّهُ مَبْعَثُ كُلِّ الصِّفَاتِ
وَالْعَوَاطِفِ وَالْغَرَائِزِ الْإِنْسَانِيَةِ جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا وَشَرِيفِهَا وَوَضِيعِهَا . وَمَا عَلَى
مَنْ شَاءَ إِلَّا أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ اللَّهَ حُبًّا لِلنَّاسِ الْخُلُودَ وَحِمَاةَ الْمَوْتِ . أَتُظَنُّ أَنَّ
غَرَائِزَ الْإِنْسَانِ يَكُونُ لَهَا حَبِثٌ مَحَلٌّ أَوْ عَمَلٌ ؟ الْمَرْءُ خَالِدٌ . وَمَتَى كَانَ
الْخُلُودُ مَضمُونًا وَالْمَوْتُ مَأْمُونًا فَلَا عَمَلَ لَغَرِيزَةِ حِفْظِ الذَّاتِ وَلَا حَاجَةَ
بِالْإِنْسَانِ إِلَى الطَّعَامِ يَدْفَعُ بِهِ غَائِلَةَ الْجُوعِ - وَهُوَ أَبْسَطُ مَظَاهِرِ الْغَرِيزَةِ -
لَأَنَّهُ لَا غَائِلَةَ هُنَاكَ ، وَيَقْوَى بِهِ جِسْمُهُ لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى الْقُوَّةِ وَلَا خَوْفَ
أَنْ يَعْتَرِيهَا نَقْصَانٌ أَوْ يَصِيبُهَا كِلَالٌ . وَلَا لَزُومَ لِلسَّمْعِ وَالْكَدْحِ إِذْ لَا طَائِلَ
تَحْتَهُمَا وَلَا ضَرَرٍ مِنْ رَفْعِ مَوْثِقَتِهِمَا . وَالْاجْتِهَادُ يِطْلُ وَيَذْهَبُ مَعَهُ كُلُّ
مَا عَسَى أَنْ يَوْفَى الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْإِخْتِرَاعَاتِ
وَالِاسْتِكْشَافَاتِ . فَيَعِيشُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَمْنٍ وَلِأَنَّ وَأَصْدَقَ وَدَادَ مَعَ الْمِيكَرُوبَاتِ

التي تفتك بالعالم الآن ، ويلقى بنفسه فى أطنى لجج اليم وكأنه يتمطى على فراشه الوثير ، ويساكن الوحوش الضارية التي لم تعد أنيابها ومخالبها تؤذى وتردى . ويهدم المساكن ويرمى بالثياب ويؤثر العرى إذ ما حاجته إليها ؟ وأى سوء يتقيه بها ؟ ولا يعود « يستحيى » أن يمشى هكذا عارياً - كما سنثيت ذلك - بل لا يعود يحس حتى الحاجة إلى النوم لأن جسمه مركبٌ بحيث لا يضمحل ولا يتباه التداعى أو يعدو عليه الفناء . ولا يبقى ثم فرق بين إنسان وإنسان ، لا شجاعة ، لأن معنى الشجاعة الإقدام على الخطر أو ما يتوهمه المرء خطراً ، وليس هناك خطر ما ، ولا كرم لأن الفقر والغنى سيان ، وما بأحد حاجة إلى شيء . ولا بخل إذ لا كرم ولا خوف من الفقر وما ينطوى تحته من المعانى . والأرض ما الداعى إلى حرثها واستغلالها ؟ والمصانع لماذا تنشئها ؟ والمتاجر لأية غاية نتخذها ؟ والسفن ما أضاعة الوقت فى ابتنائها ؟ وأى داع للعجلة فى الانتقال من مكان إلى مكان ؟ والعمر عمر الأبد لا يجد ؟ بل ما الحاجة إلى الانتقال وكل بقعة ككل بقعة ؟ حتى الحكومات لماذا تقيمها وننظم أمورنا بواسطتها وليس لنا أمور أو شؤون تنظيم ؟ والمثل العليا هل ينشدها أحد أو يحلم بها ؟ كلا ! ولا تبقى هناك آداب ولا علوم ولا صناعات ولا ملاء ولا شيء على الإطلاق إلا جسم خامد لا يحفره حافظ حتى إلى تحريك إصبعه .

بقيت الغريزة النوعية ، ومظهرها الحب وغايتها حفظ النوع . وهى تبقى ما بقيت الغاية مطلوبة مسعياً إليها . أما إذا أصبحت الغاية موجودة بطبيعة الحال ، وصار النوع باقياً خالداً لا خوف عليه ، فإن الغريزة لا يبقى لها عمل . وإذا بطل عمل الغريزة انعدمت وبطل كل ما نتج عنها من العواطف . وصار الرجل يرى المرأة ولا يشعر بحاجة إلى التعرف بينهما ، والمرأة ترى الرجل ولا تحس أنه نصفها الثانى كما يقولون فى تعبيرهم

الجديدة ، أو أن بها حاجة إلى تكميل نفسها به . لا يجذب أحدهما الآخر أو يصفيه إليه أو يحرك فيه بواعث الشعر والغناء . ومتى امتنع الشعور الجنسي المتبادل بين الرجل والمرأة امتنع تبعاً لذلك ما نسميه الآن الجمال والحياء والخفر والدلال والوصل والمجر والغيرة وسائر أمثال هذه المعاني التي ترجع في مرّة أمرها إلى الحب ، وزالت عاطفة الأمومة والأبوة ، وتجرد « البيت » من معناه ، واستحال أن يكون « للأسرة » وجود ، وتقوضت دعائم الاجتماع وصار الإنسان مخلوقاً « غير مدنى بالطبع » ! لا يخالجه غضب أو رضى أو حب أو بغض أو قوة أو أمل أو ندم ، ولا خوف ولا يأس ولا احتقار ولا رحمة أو قسوة ولا غيرة أو إعجاب ، وزايلته مادة الحياة الحاضرة بأسرها .

وعسى من يسأل . ولكن ألا يبقى له شيء ؟ ألا يحتفظ بصفة واحدة أو شهوة من شهواته كالشهرة والحكم ؟ كلا ! حتى ولا هذه ! لأنها جميعاً ليست إلا مظاهر للتعزى عن الخلود الممتنع فى الحياة بخلود الذكر . وماذا يصنع الإنسان بالشهرة ؟ ولماذا يطلبها وليس من يكثر لها أو يفهمها ؟ وبأى شيء يريد أن يشتهر ؟ الأدب معدومة بواعثه ، والعلوم لا ضرورة إلى تحصيلها ، والخير ليس خيراً ، والشر لم يعد شراً ولا شيء هناك ينفع أو يضر . وما يُستطاع من الأعمال التى نعدّها الآن أعمال بطولة مستحيل إذا ضمن الخلود . إذ ما هى البطولة الحربية مثلاً ؟ هى أن تقوى بشجاعتك وبصرك بفنون القتال على سحق عدوك وإحضاعه لك . والسرفى خضوعه هو هول القتلك به . والآن فتصور جيشين رجالهما خالدون وقل لى كيف يستطيع أحدهما أن يقهر خصه ؟ إن الموت هو نفاذ القوة الحيوية ، والخالد لا يموت أى لاتنفد قوته ولا يعروه نصب . فلا بد أن يظل الجيشان يتحاربان أبداً الدهر بلا نتيجة ، فأولى أن لا يتحاربان ،

وعلى أن الباعث على التقاتل يتمتع من تلقاء نفسه مع الخلود . وهب هذا الباعث الطمع أو شهوة التحكم أو غير ذلك فما محله مع الخلود ؟ الطمع لا يشعر به الخالد لأنه بلغ أقصى غاية الطمع وصار في غنى عن كل ما دونه . وشهوة التحكم يثيرها علمُ المرء أن في الناس الخنوع والخوف والجن و رهبة القوة ، والخلود يُعفى على هاتيك جميعاً ويقطع الطريق على نشوتها وإذا كان لا فضل لإنسان على آخر ولا مزية ، لأن الخلود سوى بين الناس ، فكيف يمكن أن يلج بالمرء مثل شهوة الحكم ولا قوة له ينفرد بها ، ولا في غيره عجز عما يطيقه ولا من وراء ذلك غاية ؟

إذن فالناس إذا خلدوا يتجردون من كل صفاتهم ونزعاتهم وغرائزهم وعواطفهم وإحساساتهم التي نعرفها ونسير بها في حياتنا وفق طبائعها ، ويحولون مخلوقات أخرى يستحيل على العقل الآدمي أن يتصور حالتها وما تكون عليه أو ما تغرى به ، وكل ما يهدينا إليه القياس هو أن كل ما للإنسان مما ذكرنا يصبح باطلاً ومحالاً . ومن هنا كان من السخافة المطبقة أن أتصور أن مثل ما يقع لنا في حياتنا يمكن أن يكون جائزاً مقبولاً ومحتملاً مع الخلود في الآخرة . ولهذا لم يسعنى إلا تمزيق القصيدة إذ كانت فكرتها قائمة على استحالة !

ولكن هل كان المتنبي يقصد إلى كل هذه المعاني حين قال :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب ؟
أليس الأرجح أن لو كان يدرك ما ينطوى تحت بيته هذا من المعاني التي استخلصناها لأتى عليها في بيت أو أبيات أخرى يُصفى فيها المسألة ويبين ما أغفل من الجوانب المتممة للفكرة ؟ أليس أقرب إلى الصواب والأرجح في الرأي أن يكون هذا البيت قد جاء منه عفواً كالشرارة تطير

عن حافر الجواد وهو يعدو على الخصى والحجارة ؟ وكما أن الجواد لم
يتعمد أن يقدح الشرارة ، كذلك المتنبي لعل تدفقَ الذهن فى مجرى الكلام
على الموت قاده عفواً إلى هذا الخاطر دون أن يفتن إلى عمق ما كشف
عنه . نقول : قد يكون هذا كذلك فما ننكر أن للذهن انتباهات يرى فيها
حتى الغيب كما يقول ابن الرومى :

وللنفس حالات تظلم كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد
ولكن السياق يرجح عكس ذلك ، لأنه فى معرض التقدم بالعزاء لسيف
الدولة عن يماكه التركى ، وقد شاء أن يعزيه عن فقده بأن يبين له ضرورة
الموت وفضله وأنه حتم لا مفر منه ، فمضى يقول له لو أن من سبقونا
عاشوا أبداً وخلدوا فى الدنيا لما وجدنا نحن ، فإذا كانت الحياة خيراً فالفضل
فيها للموت الذى عصف بسابقينا ، وأراد أن يزيد فى بيان ما للموت من
الفضل وما ينتجه من المزايا ويخلقه فى النفس من الخلال الحميدة ، فقال
بيته الذى جعلناه مدار هذا الفصل ، ولعله تعمد أن يغفل أن الموت سبب
الرذائل كما هو علة الفضائل ، لأن المقام استوجب منه أن لا يذكر إلا حسنات
الموت وأياديه البيضاء على الإنسانية ، ليحمل سامعه على الرضى بهذا القدر
المز . أو لعله لم يفتن حين قال هذا البيت إلى كل جوانب الفكرة التى
ساقها . وما أظن شاعراً أو كاتباً لم يجرب ذلك : يخطر له المعنى فيبادر
إلى تقييده ، ثم يفتن فيما بعد إلى أنه لم يُحِط بكل جوانبه . وقد يتيسر
له أن ينقح ما كتب أو نظم فيوفى المعنى حقه ، وقد تشغله الشواغل عن
ذلك فيبقى المعنى ناقصاً وإن كان قد تم ونضج فى ذهن صاحبه . ويجيء
ناقد مثلى أو مثلك أيها القارئ فيدرك هذا النقص فى استيفاء المعنى ويفرح
بذلك وينعاه على قائله ويطلب ويصر ويقيم الدنيا ويقعدها كأنما يقول للناس
« تأملوا ذكائى وفطنتى ! ما أعظمهما وأكبرهما ! وما أشد إرباءهما على

ذكاء صاحبكم الشاعر أو الكاتب الذى كنتم تحسبونه بَدْءَ الأوائل والأواخر ! » وصاحبنا الشاعر أو الكاتب - إذا كان معاصرًا وكان واسع الصدر - يضحك ويقول « ما أظلم الدنيا والحظ ! » .

ولعل بعدُ أخطأت حين مزقت القصيدة . ذلك أن المرء ليس مطالبًا بما يفوق طوق الإنسان ويجاوز مدى قدرته . وليس من العيب أن يُعجزه أن يتصور الحياة الخالدة فى الآخرة أو غيرها إلا على مثال الدنيا . وإنه ليكون من العنت البحث أن يطالب أحد بأن يكون صادق التصوير لنوع من الحياة لا يعلمه ولا هو يتاح له أن يجربه فى مدى عمره أو عمر سواه من الخلق . وأحسب أن لو استطاع أحد أن يصف لنا حقيقة الحياة الخالدة لما وسعنا أن نفهمها نحن أبناء الموت ، بل لبدت لنا حافلة بكل ضروب الاستحالات .

ولكنى مع ذلك فعلتها ! فكنت سخيًّا فى الأولى والثانية !

(٥)

حكايات بخله - نقدها - الحزم لا البخل -
شاهد من شعره

زعموا أن المتنبي بخيل كثر ، وأنه أهان نفسه الكبيرة - أو التى زعمها كبيرة - فى سبيل المال ، وقالوا إن بخله هذا ودعواه الشجاعة لا يتفقان ، واعتمدوا فى ذلك كله على مشهور الاعتقاد دون الانتقاد ، وأخذوا فيه بالتقليد لا بالتمحيص والاختبار ، وقابلوا أصحاب هذا الرأى بالتسليم والامتنال ، ولم يعن واحد ممن قرأنا لهم فى هذا الباب بأن يبين عوار ما رُوى عن الرجل وزله وعله الخطأ فيما حكوه عنه وخلله ، وليس هذا من النقد الأدبى فى شىء . ولا هو يدل على وجود الاستعداد لفهم الشعر

على الوجه الصحيح . ويحسن بنا قبل أن نخوض فى هذه المسألة أن نورد ما يستندون إليه فى دعواهم .

حكوا أن أبا الفرج قال « كان أبو الطيب يأنس بى ويشكو من سيف الدولة ويأمنى على غيبته له ، وكان ما بينى وبينه عامراً دون باقى الشعراء ، وكان سيف الدولة يفتاظ من تعاطمه ويجفو عليه إذا كلمه والمتنبى يجيبه فى أكثر الأوقات ويتغاضى فى بعضها - قال أبو الفرج البيغاء هذا - وأذكر ليلة ، وقد استدعى سيف الدولة بدرّة فشققها بسكين الدواة ، فمد أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحنا فيه سيف الدولة صالحاً ، ومددت ذيل دراعى فحنا لى جانباً ، والمتنبى حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا . فما فعل ! فعاظه ذلك ، فشرها كلها على الغلمان ، فلما رأى المتنبى أنها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته فى رقبته ، فاستحى ومضت به ليلة عظيمة وانصرف - فخطب أبو عبد الله بن خالويه سيف الدولة فى ذلك فقال : يتعاضم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لولا حماقة ؟ » .

هذه هى أشهر القصص التى تروى عن المتنبى ، وهى إذا أصبحت أدل على الحمافة منها على البخل - وعلى حماقة لحظة دون حماقة العمر التى تُعفى المداوى . ولكن فيها مواضع للنظر تبعث على الشك فى صحتها وتشير الريب فى صدق راويها . ذلك أن أبا الفرج البيغاء لم يكن يحتاج إلى كل هذه المقدمة فى بيان منزلته من أبى الطيب واطلاعه على سره لو أنه كان حقيقة بحيث يصف نفسه . إذن لكان هذا معروفاً لا يحتاج إلى شرح ، ومفهوماً بطبيعة الحال لا يستلزم أن يسوقه توطئة للحكاية ، وليلاحظ القارئ كذلك أن أبا الفرج هذا جعل نفسه « شاهد عيان » للحادثة التى يرويها . ولو أنه كان يحكيها على أنه سمعها من المتنبى نفسه لفهمنا منه أن

يقول عن نفسه فى مستهلها أن المتنبى كان يأتىه على غيبته لسيف الدولة ، وإن ما بينهما كان عامراً دون سائر الشعراء . فأما وهو شاهد عيان فلا محل على الإطلاق لهذه المقدمة التى يُخيل لنا أنها دفاع سابق لتهمة مقدرة .

ولم يعرف عن المتنبى أنه كان ممن يغتابون الناس ، وبخاصة سيف الدولة . وهذا بالبداية لا يمنع أنه كان يشكو جفوته فى بعض الأحيان ، ولكن الغيبة شىء والشكوى شىء آخر . وما حاجة المتنبى إلى مؤتمن على الغيبة وهو يعلن عبه ويذيعه فى شعره السائر مسير الشمس حتى قيل أن يفارق سيف الدولة ؟

وليس هناك من الشهود على صحة الحكاية غير ابن خالويه ، وهذا خصم للمتنبى لا يصدق قوله فيه . وفى الحكاية مبالغة ظاهرة لا يُعقل أن تصدر عن كان كانتنبى تعازماً وترفعاً . ومن ذا الذى يصدق أن المتنبى يبلغ من حماقة واستهائه بكرامته أن لا يكتفى بمزاحمة الغلمان له على الدنانير حتى يرضى أن يدوسه ويركبه ؟

وحكوا غير ذلك : أن أبا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيوفاً ، فلما نظر أبا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه فى دسسته ، ثم قال اختر سيفاً من هذه السيوف ، فاختار منها واحداً ثقیل الحلى ، واختار ابن العميد غيره ، ثم قال كل واحد منهما « سيفى الذى اخترته أجود » ثم اصطلحا على تجربتهما فقال ابن العميد « فماذا نجربهما ؟ » فقال أبو الطيب « فى الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم تضرب به فإن قدها قاطع » فاستدعى ابن العميد عشرين ديناراً ثم ضربها أبو الطيب فقدها فى المجلس فقام من مجلسه الفخم يلتقط الدنانير المتبددة ، فقال ابن العميد « ليلزم الشيخ مجلسه فإن أحد الخدام يلتقطها ويأتى بها إليك » ، فقال أبو الطيب « بل صاحب الحاجة أولى » .

نقول والاختراع فى الحكاية واضح . وحسب القارئ أن ينبه إلى أنها ناقصة ! ماذا فعل ابن العميد بسيفه الذى اختاره ؟ لقد عرفنا أن المتنبي جرب سيفه فقد به الدنانير فتين له ولغيره أنه قاطع . ولكننا لم نعرف شيئاً عن سيف ابن العميد . وهذا على الرغم من أن القصة محورها الخلاف على أى السيفين أقطع !!

ومن هذا النقص يتبين للقارئ أن الراوى - وهو مجهول ! - إنما ساق الحكاية للتنديد بالمتنبي ، ولهذا نسى أن يتمها على عادة المشنعين ، ولهذا أيضاً تحرى فيها أن يحمل السامع أو القارئ على ازدراء عمل المتنبي ، وذلك بأن يفخم من أمره لتزداد الهوة التى انحدر إليها عمقاً ، فجعل ابن العميد يتخلى له عن مجلسه . ثم يعرض عليه السيوف دون الحاضرين جميعاً ويُفرده فضلاً عن ذلك باختيار واحد لنفسه . ثم يأبى الراوى المجهول إلا أن يجعل المتنبي يختار سيفاً كثيراً الحلى ثقيلاً ليوقع فى روعك أن أبا الطيب نظر إلى الحلى ولم ينظر إلى مهز السيف وفيرنده . ثم بعد ذلك يقيم المتنبي من مجلسه ليلتقط الدنانير ويجسم لك الأمر فيصف المجلس - هنا فقط - بأنه فخم !

وبعد ، فهل بقيت بنا أو بالقارئ حاجة إلى تقصى أخبار البخل المروية عن المتنبي لزنهها ونخصها ؟ لست أشعر باخاجة إلى ذلك . وأكبر ظنى أن بالقارئ مثل استغنائى عنه . فإذا شاء المزيد فعليه بالصبح المنى وأشباهه من كل كتاب لم يتوخ صاحبه إلا مجرد النقل حتى لتحسبها جميعاً لرجل واحد لولا ما تلمحه من قصد هذا إلى الدفاع ، ومن تعمد ذلك الزرابة والتشهير . ولو أن هؤلاء أو غيرهم من الكتاب المعاصرين الذين رأينا لهم كتباً فى هذا الباب نظروا إلى شعر الرجل باعتباره صورة لنفسه وجوانبها المتعددة لنبدوا هذه القصص ، ولفطنوا إلى أن المتنبي لم يكن بالرجل البخل وإنما كان رجلاً يعرف قيمة المال وما له من الأثر البالغ فى الحياة .

ولقد عرف القارئ مما كتبنا عن المتنبى ، ومن شعره نفسه ، أنه كان
« يتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك » كما يقول أبو البركات بن
أبى الفرج المعروف بابن زيد التكريسى الشاعر . ولم يكن يخفى على
المتنبى أن المال « عضل » المساعى والمطالب الضخمة كما يقولون .
أو « زئدُها » كما يقول المتنبى . والمال عند المتنبى لم يكن مطلوباً لذاته ،
ولا لأن له قيمة قائمة بنفسها ، ولا لأن به مرضاً يدفعه إلى التماسه
وتكديسه ، بل لأنه عونٌ على الغايات وفى ذلك يقول :

وما رغبتي فى عسجد أستفيد ولكنها فى مفخر أستجده

ويقول لكافور وهو يمدحه ويطلب منه الولاية التى جاءه طامعاً فيها :

وأُتعب خلق الله من زاد همه	وقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا ينحل فى المجد مالك كله	فينحلّ مجدّ كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه	إذا حارب الأعداء ، والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله	ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

أى أنه يقول : أشقى الناس من زادت همته وقصر ماله عن مبلغ ما يهّم
به ، وينصح لكافور أن لا يُسرف فى العطاء فيذهب ماله كله فى طلب
المجد والرياسة ، لأن المجد لا يعقد إلا بالمال فإذا ذهب المال انحل ما كان
معقوداً به . وكما أن الضرب لا يكون إلا باجتماع الكف والزند ، كذلك
المجد والمال قرينان . وصاحب المال بلا مجد فقير زرى وصاحب المجد
لا مال موشك أن يزول عنه مجده .

وقد زعم بعضهم أنه إنما يصف كافوراً بالبخل فى هذه الأبيات لأنه
حرمه وضمن عليه ببغيته ، وأنه سلك فى ذلك مسلك كثير إذ دخل على
هشام فمدحه فلم يشبه فقال كثير يخاطبه :

إذا المال لم يوجب عليك عطاؤه	صنعة تقوى أو خليلاً توافقه
منعت ، وبعض المنع حزم وقوة	ومجد ولا يعينك إلا حقائبه

فقيل لكثير : ما حملك على أن تعلم أمير المؤمنين البخل ؟ فقال : إنه
منعنى من رفته ، وآلمنى برده ، فأردت أن أحبيب إليه المال ، فيمنع غيرى
كما منعنى ، فيتفق الناس على ذمه !

وهى حكاية مخترعة . والحقيقة الواضحة أن بعض المولعين بالتأليف
عثر على هذين البيتين فى قصيدة كثير ، فوجدهما غريبين من شاعر يريد
أن يمدح ملكاً بالكرم ليستوكف رفته ، فنسج حولهما هذه القصة السخيفة .
فقد كان هشام بخيلاً بطبعه لا يحتاج أن يعلمه كثير الحرص . ولو كان
جواداً لما بلغ كثير عزة غايته منه بيته هذين .

وفرق بين بيته وأبيات المتنبي التى يوصى فيها بالحزم وضبط الأموال
لغاية مفهومة معقول أن يُضبط لها المال . وقد صارت القضية الآن جلية
بعد الذى سقناه . رجل له غاية معينة ، يريد أن يوفر لها الوسائل ، وأن
يحشد لها المال ، فى غير كرازة ، إذ كان المال أقوى أداة ، وأمتن وسيلة .

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ منذ أعوام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بعض البله والحمقى ، ضغينة نَحْمِلُهَا للرجل أو عداوة بيننا وبينه . وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صِحة ^(١) ، ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر ، أو نزاحمه على الشهرة ، لأن ما بيننا من تباین المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالاً لذلك . ولكنى لسوء الحظ أُحْدُ من يمثلون المذهب الجديد الذى يدعو إلى الإقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له . أقول لسوء الحظ ، لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأينا فى ضرورة ذلك ، وفى وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره اليوم فى الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة إذا مضوا عليها أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر ، وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد وألفوا الصراحة فى القول وتوخى الصدق فى العبارة عن الرأى ، لما كانت بى حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى تبرئة نفسى ودفع ما يرمونى به ، ولكنى أنشر النقد على ثقة من حسن

(١) نقدنا شعر حافظ فى ١٩١٣ . ثم جمعنا متفرقة وطبعناه فى ١٩١٤ - ١٩١٥ وجعلنا هذا المقال مقدمة له ، ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ أية صلة . وقد أثبتنا هذا المقال هنا لدلالته على حال الأدب يومئذ .

ظن القراء بى وبخلوص نيتى وبراءة سريرتى مما تصفه الأوهامُ وبصوره
الجهل . ولكننا لسوء الحظ مضطرون أن نثبت حسنَ القصد فى كل ما ننقدُ
كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا ودافعه الضغائن والأحقاد ! ومن
سوء حظ الناقد فى مصر أنه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم
أو يعول على صحة رأيهم . وليساعنى القراء فى ذلك فقد رأيت عجباً
أيام كنت أنشر هذا النقد : من ذلك أنى كنت إذا قلت إن حافظاً أخطأ
فى هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم « لم يخطئ حافظ وإنما تابع العرب ،
وقد ورد فى شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن
يأتية الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرأ من كل عيب ! إلى غير
ذلك مما يُغرى المرء باليأس ويحملة على القنوط من صلاح هذه العقول !

وإذا فرضنا أن العرب أصابوا فى كل ما قالوا ، افترى ذلك يستدعى
أن نقصد قصدهم ونخذلى مثاهم فى كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟
ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق التصرف فى ما يرث ؟ هل تقليدك
العربَ وجريك على أسلوبهم يشفعان لك فى خطأ نحوى أو منطقى ؟
كلا ! إذا فكيف يشفع لك فى غير ذلك مما لا يصح فى العقول ولا يتفق
مع الحق ؟ وكيف نتحاكم إلى العقل فى الأولى ولا نستقصيه فى الثانية ؟

لا نتكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة ، وما للخبرة
ببراعات العظماء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والأثر الجليل فى تربية
الروح ، ولكنه لا يخفى عنا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية
والذهول عن الغاية التى يسعى إليها الأديب والغرض الذى يعالجه الشاعر ،
والأصل فى الكتابة بوجه عام .

على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثمَّ مساعٍ للشك فى
أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد . فإن الفقير

لا يغنى بالافتراض من الموسرين . ولست أقصد إلى نبذ الكتاب والشعراء الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فإن هذا سخف وجهل ، ولكنى أقول إنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التي لا ينبغي للكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال - كالصدق والاخلاص في العبارة عن الرأى أو الاحساس - وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد .

(وبعد) فإنه لا يسع من ورد شريعة الأدب ، وعلم أنه يحتاج إلى مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتياي في حكاية السلف والضرب على قلوبهم والافتباس بهم فيما سلكوه من مناهجهم ، ومن تبسط في شعر الأولين ، لا يسرق منه ما يتنى به بيوتاً كبيرت العنكبوت ولكن ليستعين بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة وأسرارها ومعانيها ، وليهتدى بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكه العيش ، وليتعقب بنظره شعاعها المتفلغلة إلى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم - أقول لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله إلا أن ينظر إلى حال الأدب العصري نظرة في طيها الأسف والخيبة واليأس . وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ، ويعصر قلبه ، وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الإنسانية ومخاوفها ، ويستورى من رفات آلامه شهاباً يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أحداً حثاً يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التي ربما التبتت على القارئ لفرط حدتها أو غابت في مطاوى اللفظ واستسرت في مثنائى الكلام .

أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر « يا ضيعة العمر ! أقص على الناس حديث النفس ، وأبشهم وجد القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ! كأننى إلى اللفظ قصدت !! »

وأنصب قِبل عيونهم مرآة للحياة نُريهم ، لو تأملوها ، نفوسهم باديةٌ في صقالها فلا ينتظرون إلا إلى زخرفها وإلى إظهارها وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن ؟ ؟ وأفضى إليهم بما يُعنى أحدُهم التماسُ من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ذلك ! ما لهم لا يعييون البحرَ باعوجاج شطآنه وكثرة صخوره ؟ ؟ يا ضبيعة العمر !! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم ؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا إليه ؟ وبأى معنى رائع جئتم ؟ وماذا ابتكرتم من المعانى الشريفة والأغراض النبيلة ؟ فنقول قد لا يكون فى شعرنا شيء من هذه المعانى الشريفة والأغراض النبيلة التى تطلبونها وتبحثون فيه عنها ولا تألون (أنتم) جهدًا فى الفوص عليها وفتح أغلاقها والتكلف لها ! وقد لا نكون أحسنًا فى صوغ القريض ورياضة القوافى ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلًا على فساد مذهبنا وعقمه ، إذا صح أننا خبنا فيما تكلفناه وهو ما لا نظنه ، بل هى دليل على تخلف الطبع لا أكثر - وعلى فرض ذلك كله فإن لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودينية الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعًا ، وحسبنا ذلك فخراً لنا وخزياً لكم ! ليس أقطع فى الدلالة على أنكم لا تفهمون الشعر ، ولا تعرفون غاياته وأغراضه ، من قولكم إن فلاناً ليس فى شعره معاني رائعة شريفة ، لأن الشاعر المطبوع لا يُفتت ذهنه ولا يكذب خاطره فى التنقيب على معنى لأن هذا تكلف لا ضرورة له . أو ليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه وإحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيفة ؟ ؟ وهل الشعر إلا صورة للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخى

الشاعر فى شعره إلا كل جليل من المعانى ورفيع من الأغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ؟ أليس شرف المعنى وجلالته فى صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل .

ألا إن مزية المعانى وحسنها ليسا فى ما زعمتم من الشرف ، فإن هذا سخف كما أظهرنا فيما مر ، ولكن فى صحة الصلة أو الحقيقة التى أراد الشاعر أن يجلوها عليك فى البيت مفرداً أو فى القصيدة جملة ، وقد يتاح له الإعراب عن هذه الحقيقة أو الصلة فى بيت أو بيتين ، وقد لا يتأتى له ذلك إلا فى قصيدة طويلة ، وهذا يستوجب أن ينظر القارئ فى القصيدة جملة لا بيتاً بيتاً كما هى العادة ، فإن ما فى الأبيات من المعانى ، إذا تدبرتها واحداً واحداً ، ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذى إليه قصد الشاعر وشرحاً له وتبييناً .

وأتم فما فضل هذا الشعر السياسى الغث الذى تأتوننا به الحين بعد الحين وأى مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل إذا خلوتكم إلى شياطينكم تحمدون من أنفسكم أن صرتم أصدقاء تردد ما تكتبه صحف الأخبار ؟ وهل كل فخركم أنكم تمدحون هذا وترثون ذاك ؟ وأنتم لا تفرحون بحياة الواحد إلا لماله ، ولا تألمون موت الآخر إلا لانقطاع نواله ؟ ما أضيع حياتكم !

ليس أدل على سوء حال الأدب عندنا من هذا الشك الذى يتجاذب النفوس فى أولى المسائل وأكبرها . ولقد كتب نقاد العرب فى الشعر ، على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ، ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يتخذ دليلاً على إدراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر أن كتاب الغرب متخالفون فى ذلك ، ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح أذهانهم ودقة تنقيهم وشدة رغبتهم فى الوصول إلى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح

إليها الفكر ، كما أن إجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم
وتفريطهم وأنهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً إن لم يكن دليلاً على ما هو
أشين من ذلك وأعيب .

غير أن هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما
الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء ، لأن القلق دليل
الحياة ، والشك آية الفطنة وما يدرينا لعنا في غد نجنى من رياض هذا
القلق أزاهير السكينة والطمأنينة !